أحفاد حامي الظعائن وأحفاد الغراب الأول

أحمد عمر

استوقفني صديقي نوري، وقال عاتبًا: صدّعت رأسي بقصة الفارس العربي الجاهلي مسبِّع الصنايع. قلت مصوِّبا: حامي الظعائن. وهو فارسٌ عربي من قبيلة كنانة، وصاحب اللطيم وهو اسم فرسه. اشتهر بلقب حامي الظعائن حيًا وميتًا، وضربت به العرب المثل في الشجاعة والنجدة، فقالوا: أشجع من ربيعة بن مكدم، وأحمى من مجير الظعن. وكان يعقر على قبره في الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحدٍ في الجاهلية غيره، يعني مثل محمد رمضان «نمبر ون» أعزَّكم الله.

قيل إنَّ الرجل من بني فراس يعدل عشرة من غيرهم. وكان جدُّ ربيعة جذل الطعان الكناني علقمة بن فراس من أشهر فرسان العرب، وكان ذا شعر وفخر. وقال علي بن أبي طالب لجيشه من أهل الكوفة في وقعة صفين، كناية عن شجاعة بني فراس وبلائهم وثباتهم الشديد في الحروب: «وددت والله أنَّ لي بجميعكم وأنتم مائة ألف، ثلاثمائة من بني فراس بن غنم، صرف الدينار بالدرهم. يعني أنتم فكّة وفراطة».

قال نوري: نعم هو. انظر إلى هذه الحسناء الألمانية تلمُّ النفايات. وكانت تجمعها بعصا في طرفها ملقط، فلم لا نقتدي بمسبِّع الصنايع ونلهف إلى إغاثتها.

تقدّمنا إليها على استحياء، فوجدنا أنّها أجمل مما ظنّنا، وجمالها من النوع الذي يجعل المرء يقوم بأحد أمرين، إذا ما رآها: أن يتنهد ويقبّل الهواء وجدا أو أن يبكي كأنه فقد وطنا. وقلنا هل تسمحين لنا بمساعدتك في قطف هذه الأوساخ الرائعة والنفايات النظيفة من هذا المرج الجميل. فتبادرنا إلى كيسين من العربة التي كانت معها، وكشطنا المرج كشطا. جمعنا حتى أعقاب السجائر بأيدينا من غير عصا لاقطة، وشظايا زجاج مشروبات المنكر والبغي التي يكسرها الشاربون بعد السكر، فدُميت أصابعي، وسالت على البطاح، فقلت لإصبعي: ما أنت إلا إصبعٌ دميت في سبيل الله ما لقيت. وبعد ساعتين، عاد المرج نظيفًا، وجمعنا لها الثمار والقطف، ففرحت فرحة قاطف زيتون أو رمان وليمون، وسألتنا: من أنتما، أيها الكريمان، وكنا نفضِّل أن نبقى جندا مجهولين مثل «صاحب النقب» الذي عجز مسلمة بن عبد الملك عن معرفته، ولكنكِ ما دمتِ مصرّة فنحن سوريّان. وأخبرتها أني أحمل معي كيسا أجمع فيه النفايات، وأنا أقوم برياضي اليومية على طرف النهر، وأنَّ إماطة الأذى عن الطريق في شرعتنا من الإيمان وجزاءها الجنة. فتعجبتْ أشدَّ العجب، وحمدتُ الله أنها لم تسألني عن نظافة بلدي، وسألتْ: هل السوريون كلهم مثلكما؟

قلنا لها: كل السوريين أحسن منا، ونحن أضعفهم عزما وأقلهم شهامةً وإغاثةً للملهوفات، صرف الدينار بالدرهم واليورو بالليرة السورية. وأخرجت لها هاتفي برهانا، وقلت: اتصلي بنا كلما هبت النسائم، وناحت على الأيك الحمائم، ونضج التين وكثرت الزبالة، ونأتيك «طِوالَ الرماح لا ضِعافٌ وَلا عُزلُ».

وأخبرتها أني قدمتُ عريضة شكوى إلى البلدية، أشكو إليها انتشار النفايات في أيام العطل، لأنَّ حاويات النفايات معدنية وصغيرة، واقترحت على البلدية تكبير الحاويات، وجعلها من الغطاء المعدني ذاته، وشرحت لها أنَّ الغربان تنثرها وتنبشها، فأعجبت بالشكوى، وكبرت في عينها، وقلت: الغراب علّم جدنا دفن الموتى، ولمّا كثرت قتلانا، واحترفنا القتل جعلت أحفاد الغراب الدافن تنثر النفايات احتجاجا، وقالت: حوّل لي الرسالة، وقالت إنها ستشتكي إلى البلدية برسالتي وعريضتي، وستنتظر.

وغادرنا، أنا وصديقي نوري، وقلبانا مثخنان بالحبِّ من فعل الخيرات وعمل الصالحات. وأفشينا فضيلتنا بين الأصدقاء والجالية، نحضّهم على فعل الخيرات الزاكيّة، ودعوتهم إلى تشكيل عصابةٍ سوريّةٍ لجمع النفايات، حتى يطير ذكرنا في الآفاق، ونتصدّر الأخبار والأوراق، وتعجبّنا من حسناء شابةٍ تجمع النفايات، فقال لنا صديق مجلوٌ عن الوطن كأنه استعمار، وحاصلٌ على الجنسية، سبقنا إلى ألمانيا بسنواتٍ هاربا من الظلم والجور، وعنده علمٌ من الكتاب: غالبا هي مرتكبة جنحة وهذا جزاؤها.

الجبرتي في انتظار معركة «الخرم»

عبد الحكيم حيدر

نام الجبرتي طويلا في الثرى بعد رحيله، نافضا عنه غبار المعارك التي كم أرّخ لها بقلمه في مجلداتٍ كانت تُحمل على ظهور البعران، حينما ينتقل من سكن إلى آخر، ولم يكن يخطر على باله أبدا أن «حبيبته وياقوتة قلبه مصر» ستدخل معركة «الخرم»، بعد قرنين، بعدما سمع عن أستاذٍ في العلوم السياسية، كان من أوائل الثانوية العامة، اسمه معتز بالله عبد الفتاح، يهدّد إثيوبيا جهارا نهارا، من دون أن يأخذ حبة أو حبتين، بأنه لا مناص أمام السلطة المصرية، ومراوغات إثيوبيا الواضحة، سوى بإحداث «خُرم»، في جدار سد النهضة. حاول الجبرتي، بالطبع، أن يضحك على كلام أستاذ العلوم السياسية، ولكنه لم يستطع، نظرا إلى مرارة الوضع وعدم اللياقة أيضا. يذكر المؤرّخون، وهذا من دواعي الدهشة والمصادفات النادرة أيضا، أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، الذي أرّخ لكل معارك مصر مع أبناء الفرنسيس، واصفا المدافع والبارود والمنجنيق، أنه لم ينطق أبدا بكلمة «خُرم»، لا في موقعةٍ ولا حتى تجريدة. وأنه، عليه رحمة الله، من أصل حبشي، نزح أسلافه من «جبرت»، إحدى مدن الزيلع الإسلامي في بلاد الحبشة. ويذكر القلقشندي، نقلا عن صاحب كتاب «تقويم البلدان»، أن صحّة جبرت هي «جبرة»، في حين يذكر أيضا أن الجبرتي صومالي الأصل، وهو من القبائل الصومالية، كقبيلة المريحان والمجبرين، حيث كانت مدينة زيلع صومالية في الأصل، حتى احتلتها الحبشة، فبذلك أضيف الجبرتي إلى دماء الأحباش من دون أن يكون كذلك. وهذا بالطبع «خرمٌ مقصودٌ في كلام المؤرّخين سبق خرم أستاذ العلوم السياسية»، بما يقرب من قرنين، فهل طعن الأحباش في «خُرم المؤرّخين»، ردا لعالم جليل من سلالتهم إلى جلدتهم، عالم جليل ما زالت كتبه تطبع في القاهرة طبعاتٍ عديدة ويعتبر حجّة؟

وعلى الرغم من أن الحبشة ليس لها أي منفذ بحري على العالم أبدا، فكيف ستعوم ضفادعنا البشرية مثلا كي تصل إلى السد، ثم تُحدث به هذا «الخُرم»، ونفرض أنهم أحدثوا هذا الخُرم الاستراتيجي، فزاد اتساعه مثلا، فغرق السودان وجنوبه، فهل سيعود أستاذ العلوم السياسية ويقول للضفادع: والآن عليكم أن تسدّوا الخُرم؟

والغريب أيضا في سيرة الجبرتي، في آخر أيام حياته، بعد مقتل ابنه خليل، أنه كتب، في آخر تدويناته، الآتي: «ومما يحكى أن الرشيد سأل الليث بن سعد، وقال له: يا أبا الحرث، ما صلاح بلدكم؟ يعني مصر، فقال له الليث بن سعد: أما صلاح أمرها ومزارعها فبالنيل، وأما أحكامها فمن رأس العين يأتي الكدر». وهنا قد انتهى كلام الليث بن سعد، من دون أن يذكر أي خُرم أبدا، ومن دون أن يرمي فشل الحكم، لا على ثورة يناير التي انتهت في 18 يوما من سنواتٍ تفوق العشرة، مشيرا وموقعا وحاكما بعدما انتهت الثورة تماما، وسجن ثوّارها وقُتلوا، ولا وقعوا على اتفاقيةٍ ولا شربوا كازوزة في الاتفاق، فكيف نسي أستاذ العلوم السياسية كل هذه الأحداث التي كان فيها محللا واستراتيجيا، واكتفى فقط «بالخُرم»؟

نحن أمام رؤية جديدة للأحداث، إذن. ونحن بدورنا في انتظار ما سوف يحدُث في معركة الخُرم، فهل سوف يتم تصوير العملية في أثناء عمل الخُرم، باعتبارها من أحدث الاستراتيجيات التي سوف تُضاف إلى العلوم العسكرية كافة، وقد تسجّل باسم المعتز بالله عبد الفتاح الذي تفوّق بالطبع على اللواء عبد العاطي، رحمه الله. وقد تكون الفكرة منقولةً من مخطوطاته، من دون الإشارة إلى المصدر. ويُحكى أيضا أن الجبرتي، بعد آخر تدويناته بشأن مصر والليث بن سعد وذكره النيل، وأن صلاح أمرها ومزارعها موكول بالنيل فقط، وليس بالخُرم، أنه امتنع عن الكتابة تماما بعدها بقليل، ثم كفّ بصره حزنا على وفاة ابنه خليل، وكان قد شكّ في أن رجال الباشا قد قتلوه عقابا له على معارضته حكم محمد علي باشا، ومات، رحمه الله، في 1240 هجرية، الموافق 1825 ميلادية، تاركا ثلاثة بيوت، في الصنادقية، وعلى النيل ببولاق، ومصر العتيقة، علاوة على آلافٍ من المخطوطات، تنوء بحملها البعران، في حال نقلها من مكان إلى آخر.

الإمبريالية الأميركية مفضّلةً لدى اليساريين الممانِعين

دلال البزري

نقاط مهمة يثيرها مثقفون سوريون يساريون، في موقع «الجمهورية»، عبر رسالة مفتوحة (2021/3/27): منها إن الثورة السورية هُزمت، وإن إطار ثورة 2011 لم يعُد صالحاً لتعريف الذات، ولا لصياغة التحالفات، أو لاختيار الاصطفافات، فتقترح الرسالة مجموعة من الأهداف والتصورات المتقدّمة. ولكن الطاغي عليها نقدها موقف التجاهل الذي يتّخذه اليساريون الممانعون، السوريين واللبنانيين، من الإمبرياليات المختلفة على أرض سورية حالياً. تعدّد الرسالة هذه الإمبرياليات: روسية، إيرانية، صينية. لا تُعفي الإمبريالية القديمة، الولايات المتحدة، من آثام ارتكبتها في عصرها الذهبي، فيتنام، أميركا اللاتينية، ولا في عصر انحدارها، العراق، أفغانستان.. ولكنها تلاحظ أن دور هذه الإمبريالية «غير مركزي» في الذي يحصل الآن في سورية.

وتتابع الرسالة مآخذها على الممانعين اليساريين: اعتبارهم أن كل حركة تطالب بالديمقراطية في سورية هي بالضرورة من نتاج الإمبريالية الغربية، الأميركية خصوصا، وأن المطالبين بها هم مجرَّد «متحمّسين لقلب النظام»، أو مغفّلين وغافلين عن المصالح السياسية الغربية، ما يسمح لأولئك الممانعين بالسكوت عن جرائم بشار الأسد وحلفائه على أرض سورية، فيما ليس في وسع أحد نكران هذه الجرائم. وتنتهي الرسالة بسحب صفة اليسار عن هؤلاء الممانعين: «أنهم لا ينتمون حقاً لهذا التيار (اليساري). إذ لا يمكن أن ينتمي لليسار من ينحاز، صراحةً أو ضمناً، لنظام الأسد القاتل، ولا من يوجّه اتهامات انتقائية وانتهازية بالـ«إمبريالية» بحجج مستمدّة من تصوّره الخاص لليسار، بدلاً من مناهضة الإمبريالية بصورة متّسقة ومبدئية، وعلى نطاق عالمي، تعترف بالتدخلات الإمبريالية من كل الأطراف، ولا تستثني منها روسيا وإيران والصين». وبعد إخراج اليساريين الممانعين من صفوف اليسار، تنتهي الرسالة بوصف طبائعهم: «عديمي المبادئ، كسالى، حمقى». راصدةً مشكلتهم الأساسية، أنها «مشكلة أخلاقية».

لا يتأخر الردّ كثيراً، بفضل همّة الإعلام اللبناني الممانِع، فيكون ملفاً في أهم منابره. نقتطف بعض ما يسمّيه «ردوده» على الرسالة: أن الذي حصلَ في سورية منذ عشر سنوات لم يكن «ثورة» إنما «أزمة»، وأن هذا «الإعلام» (موقع الجمهورية) الذي صدرت عنه الرسالة ممول من الغرب الإمبريالي، وأن ثمّة علاقة «زبائنية» بين أصحاب الرسالة والغرب: يعطيهم المال مقابل إطلاقهم مواقف مؤيدة له، وأن هذا «اليسار» الصادرة عنه الرسالة أيّد غزو العراق وأفغانستان، هو نفسه يريد، بعد الغزو الأطلسي لليبيا وسقوط القذافي، أن يحصل ما يشبهه في سورية، وهو يسار جبهة النصرة، صاحب الأدوار «الذَيلية مع المجموعات الإسلامية»، وأن سورية تتصدّى لمؤامرة إمبريالية أميركية صهيونية، فيما المعارضون لنظامها متواطئون معهما.

وتتوقّف «الردود» عند صفة «الحمقى»، من دون «عديمي المبادئ» أو «الكسالى»، فهي الأخطر عند أصحابها من بين النعوت الأخرى (البلاهة أفدح من قلّة الأخلاق؟). يبحثون عن أصولها، فيردّون الصاع صاعَيْن، على ما يعتقدون: «أنتم .. أنتم الحمقى!». ودليلهم في كتاب من التراث العربي (ابن الجوزي)، أو التراث الفرنسي في كتاب فرنسي (أوغوست بيبل).

ولكن المحور الذي تدور حوله كل الردود، وإنْ بأساليب مختلفة، هو «الصفة اليسارية». فبناء على ما تقدّموا به من حجج، يحسم كتاب الإعلام الممانع بأن خصومهم ليسوا يساريين في شيء، بل هم من «اليمين». ومن بينهم، ثمّة من يذهب بعيداً في التاريخ، بحثاً عن نفي يسارية أصحاب الرسالة، في الصراع بين ستالين وتروتسكي، فوصفُ لأصحاب الرسالة بـ«التروتسكيين»، إلى ما هنالك مما تزخر به أدبيات السجال بين الممانعين اليساريين وخصومهم اليساريين المناهضين للممانعة.

والانقسام الأساسي بينهم يعود إلى ما يعتبره الممانعون «أولوية محاربة الإمبريالية الأميركية»، على ما عداها من إمبرياليات مستجدّة ومجسّدة على أرض سورية. فيما الوقائع الجديدة على هذه الأرض فرضت نفسها منذ اندلاع الثورة. اثنتان منهما لا تخطئهما العين المجرّدة، من إيرانية وروسية: جواً وبحراً وبراً. والثالثة، أي الصينية، في طريقها إليهما. ولكنها الآن تحتانية، خلفية، تجارية، «أممية» (الأمم المتحدة، حيث تجهض الصين، صاحبة فيتو، كل قرار لصالح الشعب السوري) إلخ. والغرب في هذه اللعبة يبدو هامشياً، فهو سلّم الملف للإمبرياليات الجديدة، إما لأنه لم يعد يرى في الشرق الأوسط مصالح حيوية له، أو لأن هذه الإمبرياليات، على اختلاف درجاتها وأسلوبها، أصبحت أقوى من الغرب، ليس في شرق المتوسط وحسب.

> ثمّة يساران يختلفان على أمور خطيرة ومصيرية. والاثنان يتبادلان «التهم» أن الآخر «غير يساري»

ما يهمّنا هنا السجال حول من يكون يساريا حقيقيا، ومن يكون يساريا غير حقيقي. وهو يعيدنا قليلاً إلى الوراء، في عزّ صعود اليسار، السبعينيات من القرن الماضي، عندما كان اليسار ينقسم بين «متطرّف» وأقل تطرفاً، وبين «جديد» أو «رسمي» أو «قديم». والانقسام كان يدور حول التكتيك أو المنهج الأنجع لمحاربة الإمبريالية الأميركية والصهيونية. ولا مرّة تخطى الخلاف هذه الحدود. وفي غالب الأحيان، كانت التحالفات تُعقد بين اليساريين أنفسهم، ذوي الاتجاهات المختلفة، بوجه يمينٍ يدافع عن العكس تماماً. فكانت «الهويات» السياسية واضحة، لا غُبار على تسمياتها.

الآن، اختلفت الألوان. الانقسام بين اليساريين أصبح يتم على قواعد أكثر جوهرية من التكتيك أو المنهج. بين يسار بقيت عنده الأولوية لمحاربة الأميركيين، ولو لصالح أنظمةٍ لا يعترف لا بإجرامها ومافياويتها، ولا باستبداديتها وعدم أهليتها للحُكم، ويسار آخر، تجاوز انقسامات الحرب الباردة المنْتهية منذ عقود، والتي فرزت العالم بين معسكر الشر، «عدو الشعوب» (أميركا)، ومعسكر الخير «صديق الشعوب» (وقتها الاتحاد السوفييتي الذي أصبح روسيا، بعد انهياره)، فيما كانت الصين تبني نفسها بدأب .. والآن، صعود أطماع الاثنين، أي الصين وروسيا، أمر بديهي، أمام تراجع أميركا بالتدخل في شؤون غيرها من الدول بغير الأساليب، وبغير الجغرافيا التي عهدتها في سنوات الحرب الباردة.

ثمّة إذن يساران يختلفان على أمور خطيرة ومصيرية. والاثنان يتبادلان «التهم» أن الآخر «غير يساري»، وبعضه يذهب إلى «يميني»، من دون تعيين «اليمين» المقصود. ومع هذا التبادل للتهم، يدخل المتساجلون في كلماتٍ وأوصافٍ لا تخدم «الفكرة اليسارية» التي يودّون الاحتفاظ بها. وهذا ما يحدّ من حريتهم في التفكير. إذ تبقى لليسار أطر من التفكير تضعه في مكانٍ ثابت، جامد. لا يستطيع الخروج منها إلا اليساري «الجديد»، الذي يرى في الصين وإيران وروسيا ظواهر إمبريالية جديدة، تستحضر نوعاً آخر من التفكير. والفكر اليساري قد يكون جزءاً منه، وقد لا يكون. والمطلوب من الأكثر حريةً مع الفكر اليساري، من اليساري غير التقليدي، غير المتوقف عند أعتاب الحرب الباردة، أن يشتقّ من اللغة اسما جديدا، غير «اليسار»، أو أن يعيد تعريف يساريته هو بأكثر مما هو سياسي صرْف.

الإمبرياليات الجديدة الناشطة في الأرض السورية ذات الأوجه والطاقات المختلفة، من روسيا وإيران والصين، ومعها الإمبرياليات الغربية المتراجعة عن العالم، ولكن ذات حياة أيضا في سورية، وإن ثانوية، ناهيك عن التركية .. كل هذا الاشتباك - التشابك على أرض سورية، كل هذا التعقيد، شبه الفوضوي، يحوّل سورية إلى وكْر للأفاعي السامة. يحتاج من يصفه بدقة، ولا يكون همّه، خلال هذا الوصف، أن «يبقى» يسارياً، أو يتخلّى في مسعاه المعرفي هذا عن «يساريته»، أو جزء منها، فكل ما أتى وصفه آنفاً جديد على سورية، وجديد على يسارييها وعلى يساريي لبنان. فيكون بذلك سؤاله: هل يمكن لليسار وحده، كما يعرفه أصحاب القضية، أن يزاوج بين واقع الإمبرياليات الجديدة وحفاظه على يساريته؟ أم تحتاج القصة إلى شيء غير اليسار؟

(كاتبة لبنانية)

كاريكاتير **عماد حجاج**

ممنوع من النشر

حلمي الأسمر

أفتح، قبل أيام، شاشة الحاسوب خاصتي، محاولا الكتابة، وفي كل مرة أحاول أن «أداعب» الكيبورد ترتجف أصابعي، ولا أستطيع أن أخط حرفا واحدا، منذ تركت العمل في الإعلام الرسمي وشبه الرسمي في الأردن، قبل سنوات، شعرت أنني أتحرّر شيئا فشيئا من الرقابة الذاتية التي غدت رادعا شديد المراس للجم أي تعبير حقيقي لما يجول في خاطر كاتب امتهن الكتابة منذ عقود.

في وقت ما، جمعت المقالات التي «شطبها» القلم الأخضر لرئيس تحرير «الدستور» (الأردنية) نبيل الشريف، رحمه الله، وحينما ترك رئاسة التحرير، وغدا وزيرا للإعلام، بدأت أخطّط لنشر تلك المقالات في كتاب، يحمل اسم «ممنوع من النشر» وطرأ ليَ في حينها أن أطلب من الوزير أن يكتب مقدمة للكتاب، وحينما عزمت على تنفيذ خطتي، بحثت عن المقالات الممنوع نشرها، فلم أجدها، فقد ضاعت فجأة، ولم أعثر عليها، فبقيت ممنوعة من النشر، ولم ينشر منها شيء إلا ما نشرتُه على صفحتي على «فيسبوك» في ذروة انزعاجي من حجبها عن عيون القرّاء، بعد كل منع.

عملية النشر في الإعلام الرسمي، كوكالة الأنباء الأردنية، التي تصنف باعتبارها المنصّة الرسمية لخطاب الدولة الأردنية، تخضع لجملة من «الفلاتر» شديدة الحساسية، بحيث لا يخرج على نشرتها العامة إلا ما يتم الموافقة عليه من عدد من «المسؤولين». وأذكر إبّان عملي بها في مقتبل مسيرتي المهنية أنني بثثتُ على النشرة العامة «خطأ» خبرا كان معدّا للنشر على النشرة الخاصة التي لا تصل إلا لعدد محدود من المسؤولين، وقد قامت الدنيا يومها على رأسي، وزارنا في الوكالة وزير الإعلام آنذاك هاني الخصاونة (والد رئيس الوزراء الحالي بشر الخصاونة)، حيث عمل على «تهدئة روعي»، وبدا لي أنه وقف حاجزا في وجه أي إجراء عقابي محتمل، كان سيقع على رأسي، وبدا لي أن تلك الزيارة، وإن كانت لتهدئة روعي، كان وقعها علي وقع العقاب الناعم، لأنني تجاوزت ما هو مسموح نشره في وكالة الأنباء الرسمية.

عملية النشر في الإعلام المصنّف «شبه رسمي»، وأقصد الصحافة اليومية التي عملت فيها مديرا للتحرير سنوات طويلة، لا تقلّ تعقيدا عن مثيلتها في الصحافة الرسمية، ففضلا عن «الرقيب الداخلي» الذي تعهدت قوانين الرقابة والعقوبات الصارمة بربربته في عمق كل صحافي أردني، هناك مقصّ رقيب يتعهد بخلع أي خبر أو مادة إعلاميةٍ من جذورها، وهي في طور «البروفة» إن خالفت التعليمات المكتوبة وغير المكتوبة التي تحكم عمل الصحافة اليومية، المهيمن عليها بقبضةٍ قويةٍ من السلطات كلها، ما ظهر منها وما بطن. والحقيقة أن ثمّة صحافة أخرى كسرت تابوهات الصحافة اليومية، صحافة «التابلويد» الأسبوعية، فقد أحدثت ما يشبه الثورة في الإعلام الأردني، لكنها لم تستطع، على أهمية ما أنجزته، اجتياز حاجز الخوف المزمن من التعبير بحرية، هذا الحاجز بنته عملية معقدة من الهيمنة على العقول والأقلام، هي خليط من القوانين والسلطات الممنوحة لقوى لا تعرف سقوفا في التعامل، وتستخدم شتى أساليب السيطرة المادية والمعنوية. وما لبثت صحافة التابلويد أن عصفت بها أزمة الصحافة الورقية، لتأتي صحافة المواقع الإلكترونية لتحمل «الراية»، ولكن ضمن السقوف المعهودة وآليات «السيطرة» و«التقنين» و«الترشيد». وبالجملة ظل الإعلام الأردني يدار بالآلية نفسها، من الهيمنة والتوجيه و«الهندسة!»، حتى إذا ضرب البلاد «زلزال الأمير حمزة»، وقع الزملاء في عالم الصحافة في حيص بيص، ولم يعرفوا ما يقولونه لجمهورهم الذي صب جام غضبه على رؤوسهم كلهم، سواء كانوا في مقاعد الإعلام الرسمي أو شبه الرسمي أو الخاص. ومن المفارقات هنا صدور الأمر القضائي بمنع النشر في القضية إياها، علما أن كل من هو في دائرة الإعلام لم يكن لديه ما يقوله إلا ترديد ما سرّب للصحافة الأجنبية. وبتعبير آخر، لم يكن لدى الزملاء ما ينشرونه أصلا، كان النشر مسموحا أم لا! وبالتوازي مع هذا كله، ضجّت ساعات البث الفضائي المحلية والعربية بجعجعةٍ لا نهاية لها لنخب تهرف بما لا تعرف، فتحلل وتحرّم و«تستشرف» ما لا يُستشرف أصلا، وظلت الساحة نهبا للشائعات والأقاويل والتسريبات، في غياب سرديةٍ رسميةٍ متماسكةٍ ومقنعة.

> صحافة «التابلويد» الأسبوعية، فقد أحدثت ما يشبه الثورة في الإعلام الأردني

(كاتب من الأردن)

سقوط ميشيل فوكو في تونس

أنور الجمعاوي

استضاف برنامج «هذا المساء» على القناة الفرنسية الخامسة (10مارس/ آذار 2021)، الكاتب الفرنسي/ الأميركي غي سورمان (77عاما)، لتقديم مؤلَّفه «قاموسي من الهراء» (Dictionnaire du Bullshit)، الذي عرض فيه مسيرته الفكرية، وأهمّ الأحداث والشخصيات الشهيرة التي عايشها. وكان باعثا للدهشة والذهول أن يقول الكاتب إنّه فصّل في مصنّفه في الميول الغلمانية للمفكّر الفرنسي، ذائع الصيت، ميشيل فوكو (1926- 1984)، قائلا: «هذا الشخص فظيع.. ما ارتكبه من انتهاكات في حق أطفال تونسيين أمر شاهدته. كان غلمانيا (بيدوفيل)، وأنا نادم لأنّي لم أُدِنْ تلك الأفعال المشينة وقتئذ. لم تكن مسألة البلوغ مطروحة في ذهنه أصلا، كان ينتهك أطفالا من غير الجنس الأبيض. لم يكونوا فرنسيين.. إنّها أفعال قبيحة جدّا». وأكّد سورمان، في تقرير نشرته صحيفة تايمز البريطانية (28 مارس/ آذار 2021)، وأعدّه ماثيو كامبل، أن الفيلسوف فوكو اعتدى جنسيًا على أطفال خلال إقامته بتونس أواخر ستينيات القرن الماضي، ولم يكن ليتجرأ على فعل ذلك في فرنسا. وشدد المتحدث على أنّ تصرفات المفكر الشهير ذات بعد إمبريالي (إمبريالية بيضاء)، مُعربا عن ندمه لعدم إبلاغ الشرطة بتصرّفات فوكو في ذلك الوقت، أو شجبها في وسائل الإعلام. وأفاد بأنّه التقى فوكو في عطلة عيد الفصح عام 1969 في مدينة سيدي بوسعيد القريبة من العاصمة تونس، وكان في رفقته أصدقاء، بينهم ثلاثة صحافيين، كانوا على علم بالممارسات الشاذّة لفوكو وانتهاكه الحرمة الجسدية لأطفال تونسيين. لكنّهم آثروا الصمت، وتكتّموا على ذلك، لأنّ فوكو كان يُعتبر ملك الفلسفة، ويعدّ بمثابة الإله في فرنسا.

من الناحية الإبيستيمية، يعتبر فوكو من أعلام ما تعرف بالفلسفة الحداثية المفتوحة، وينتمي إلى تيّار قطع مع الفلسفة التقليدية، أعني فلسفة النبلاء والبورجوازية، والمثاليات الأفلاطونية. ونظّر فوكو لما تسمّى فلسفة الهامش ومساءلة الممنوعات (السجن، السلطة، الجنسانية، الأخلاق، الشذوذ الجنسي، الجنون...). ويعتبر أنّ السلطة ليست ممركزة في النظام السياسي فقط، بل هي مبثوثة في مجالات شتّى، فالسلطة يمكن أن تكون سيادية أو تأديبية أو حيوية.. وهي نسبيّة، وتجلّياتها عديدة، وهي غير مقصورة على الجانب السياسي. ووضع ميشيل فوكو نظرية أركيولوجيا المعرفة، وبيّن من خلالها أنّنا لا يجب أن نتعامل مع الأفكار والقيم باعتبارها مسلّمات نهائية. بل يجب أن نحفر في تاريخها، وسيرورتها، وصيرورتها، وخلفياتها وتداعياتها، ونقوم بتنزيلها في سياقها التاريخي المحدّد، وفضائها الإبيستيمي المخصوص، بغاية كشف نسبيتها وزمنيتها. وكان لتونس فضل كبير على ميشيل فوكو، فقد درّس في كلّية العلوم الاجتماعية والإنسانية في العاصمة (1965- 1969)، وسكن مدينة سيدي بوسعيد الجميلة. وكتب مؤلّفه «حفريات المعرفة» (1969)، في تونس. وقال إنّه لم يعش ربيع الثورة الثقافية في فرنسا (مايو/ أيار 1968)، لكنّه أقرّ بأنّه عايش قبْل ذلك تحرّكات الطلبة التونسيين السياسية والنقابية والثقافية ضدّ النظام البورقيبي الحاكم (مارس/ آذار1968)، واستلهم منها أفكارا كثيرة في مستوى علاقة المواطن بالسلطة. كما استوْحى كتابه «المراقبة والمعاقبة» (1975)، من متابعته نضالات حركة «آفاق» اليسارية التونسية، للتحرّر من هيمنة النظام الشمولي الحاكم في تونس، زمن الحبيب بورقيبة، الذي يُقال إنّه هو من استقدم فوكو للتدريس في الجامعة التونسية. ومكّنت تلك التجربة الأكاديمية الفيلسوف الفرنسي من الامتداد في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسّط، وأصبح له جمهور واسع في المنطقة العربية وشمال أفريقيا والدول الفرنكوفونية. كان لتونس فضل كبير على ميشيل فوكو، لكنّه كان قاسيا على أطفال من تونس، بل كان مجرما في حقّهم.

يقول غي سورمان، في شهادته لصحيفة التايمز: «كان فوكو يتحرّش بأطفال تونسيين جنسيًا ويعتدي عليهم. كان الأطفال الصغار يلاحقون فوكو ويقولون ماذا عني؟ خُذني .. كانوا في سن الثامنة والتاسعة والعاشرة، وكان يرمي الأموال لهم، ويقول سنلتقي في المكان المعروف عند الساعة العاشرة مساء»، والمقصود مقبرة المدينة. هذه الصورة التي ينقلها الشاهد مُرعبة حقّا، بل فظيعة جدّا، تكشف عن شخصيةٍ أخرى للفيلسوف البارع، غير سويّة، مسكوت عنها في معظم النصوص التي كُتبت عنه، فقد بان أنّ الرجل يتعمّد انتهاك الحرمة الجسدية للأطفال، ويستغلّ فقرهم وبراءتهم لتلبية نزواته المُقرفة، الشاذة. وهو لا يستضيفهم في بيته، بل ينتهك براءتهم في المقبرة وفي جُنح الظلام. لماذا اختار ذلك المكان الهامشي؟ هل لأنّه يريد أن يفعل تلك الأفعال الدنيئة بعيدا عن أنظار الناس؟ أم لأنّه يحتقر ضحاياه، ولا يريد استقدامهم إلى منزله تفاديا للشبهة؟ ولماذا اختار المقبرة بالذات؟ هل يريد أن يتحدّى الموت ومسألة المصير بعد الوفاة؟ ولماذا اختار الليل فضاء زمنيا لفعْله المقيت؟ هل لأنّه يتغطّى بالسواد هروبا من الضياء وكشف الحقيقة، أم لأنّه لا يريد النظر في وجوه ضحاياه؟ كشفت تلك الشهادة عن شخصيةٍ عصابية، موتورة، شاذّة للفيلسوف المشهور، وأخبرت باستهانته بالقيم الأخلاقية والقوانين الدولية المتعلّقة بتجريم الاعتداء على الأطفال، والممارسات الجنسية مع القصّر.

ويبدو أنّ فوكو تمادى في أفعاله المشينة تلك بحقّ أطفال تونسيين، لأنّه كان يتمتّع بحماية غير معلنة من الرئيس بورقيبة، ولأنّه كان يرى نفسه مواطنا فرنسيا، ورجلا أبيض، يواصل هيمنته على أطفال بلدٍ احتلّته فرنسا سابقا، ويعتبر نفسه فوقَ المحاسبة القانونية والملاحقة العقابية، لأنّ جنسيته فرنسية، ولأنّه بلغ النجومية في الفلسفة. يضاف إلى ذلك عدم وجود منظمات حقوقية وجمعيات مدنية تونسية فاعلة، تُعنى بشأن حقوق الطفل في تونس وقتها. فضلا عن عدم وجود وسائل إعلامية حرّة، وتواطؤ الصحافة الفرنسية وقتها مع ممارسات فوكو الشاذة. ساهم ذلك في إفلات الفيلسوف المأزوم من المساءلة والعقاب. وحتّى لا يكون رصد مسألة بيدوفيلية فوكو حكما أحاديا صادرا عن جهة علم واحدة، أعني شهادة غي سورمان، حاولت أن أتقصّى الأمر على جهة التدقيق، فقمت بحفريات في سيرة ميشيل فوكو، عسى أن أعثر على ما يؤيّد ما وجّهه إليه سورمان من اتّهامات. وتبيّنت من خلال جهد أركيولوجي معتبر أنّ الرجل كان يعاني من اضطرابات نفسية وسلوكية مذ كان مراهقا، وأقدم، بحسب تقرير أعدّته مجلة «فلسفة»، على محاولة انتحار في الثانية والعشرين من عمره، وأنّ والده أخذه مُكرها لمقابلة جان ديلاي، وهو إخصّائي نفسي في مستشفى سانت آن بباريس. وبعد حصص المعايدة، أفاد الطبيب المباشر لحالة فوكو بأنّ «محنته ناتجة عن تمسّكه بمثليته الجنسية، وولعه بالسادية/ المازوشية، ورغبته في أن يظلّ سلوكه في منأى عن الرقابة الأخلاقية والاجتماعية». ومن ثمّة، كانت شخصية فوكو تعاني مبكّرا من انفصام ناتج عن صراع داخله بين نزوعه للمثلية وتحجير المجتمع لتلك الميول. وجاء في التقرير أنّه سافر في شبابه إلى السويد، وألمانيا، وبولونيا، ليعيش مغامراتٍ مثلية، وليتخفّف من الرقابة المشدّدة على ميوله الجنسية هذه في فرنسا. وفي السياق نفسه، تؤكد وثيقة مهمّة أخرى ميْل فوكو إلى ممارسة الجنس مع الأطفال، وهي عريضة وقّع عليها مثقفون فرنسيون، من بينهم جاك دريدا، ولويس ألتوسير، وسيمون دي بوفوار، وجيل دولوز، وفراسواز دولتو، وميشيل فوكو وغيرهم سنة 1977 وعنوانها «رسالة مفتوحة إلى لجنة القانون الجنائي لمراجعة بعض النصوص التي تحكم العلاقات بين البالغين والقُصّر»، وطالب فيها الموقعون بتخفيض سنّ البلوغ والتشريع لممارسة الجنس مع الأطفال الذين تكون أعمارهم في حدود 13 سنة. وورد في كتاب «شهوة ميشيل فوكو» (1993)، لجيمس ميلر، أنّ المفكّر المشهور كان مهتمّا بالمثلية والسادية، وكان أوّل شخصية عامّة في فرنسا اعترفت بأنّها مثلية، ومات متأثّرا بالإيدز. وورد في تقرير آخر أنّ ميشيل فوكو غادر تونس بعدما اشتكاه مراهق (18 سنة)، إلى وزارة الداخلية التونسية، واتهمه بالاعتداء عليه جنسيا. ومن ثمّة، فإنّ أدلّة معتبرة تفيد بأنّ ملك الفلسفة كان ينتهك براءة الأطفال، ويشرعن لذلك تلبية لنزواته.

> يبدو أنّ فوكو تمادى في أفعاله المشينة بحقّ أطفال تونسيين، لأنّه كان يتمتّع بحماية غير معلنة من بورقيبة

(كاتب وأستاذ جامعي تونسي)

الأمير حمزة ليس داود خان

ياسر أبو هلالة

في مئوية الدولة الأردنية، اتضحت إنجازاتها بقدر ما انكشف مأزقها. البلد الصغير، محدود الموارد كثير النكبات، حقق مكانة في مستوى العيش والصحة والتعليم والبنى التحتية، عجزت عنه دول بترولية تفوقه بالموارد المادية والبشرية. وفوق ذلك، تمتع الأردنيون بحرية نسبية قياسا على غيرهم من العرب، وتعاقدوا مع قيادتهم على نظام ملكي دستوري يبعدهم عن الفوضى وعن الحكم المطلق. واتسمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم بالتسامح مهما بلغ الخلاف، ولم تعرف البلاد حالة إعدام سياسية واحدة. وظل أكثر بلد يصدر قوانين العفو العام، ولم يستثن منها حتى من حاولوا الانقلاب على الملك، أو من تورطوا بالإرهاب. وهذا ليس إنجازا لفرد بقدر ما هو تكامل بين القيادة والشعب، وليس من الإنصاف أن يُحسب الإنجاز لأحدهما والإخفاق للآخر.

ما لم يحققه الأردنيون خلال المئوية الأولى هو الالتزام بالدستور. استأثرت الدولة بالسلطة وغيبت الشعب، باستثناء مرات معدودة عامي 1956 و1989، وظل الحكم مقصورا على الملك. وفي قضية الأمير حمزة، أخيرا، دخلت الدولة في مأزق، نتيجة غياب الثقة في المؤسسات، وغياب دور مجلس النواب الذي يجسّد الركن الأول في الدستور. وعبّر التعاطي مع المأزق من خلال الإعلام ومنصات التواصل عن فوضى بين من يهمّش دور الملك، وكأن المُلك يقرّر من خلال هاشتاغ على «تويتر»، أو من خلال مقاطع فيديو، وليس مسألة محسومة بشكل وراثي، ومن يتعامل مع البلد وكأنها ملكية مطلقة، يفعل بها الملك ما شاء بلا دستور يقيّده.

الخروج من المأزق الذي سببته قضية الأمير حمزة لا يكون إلا بالتطبيق الكامل للدستور، فلا أحد يتدخل بقرار الملك في تعيين ولي عهده، ولا أحد يفرض على العائلة المالكة ملكها، فالملك وراثي ونقطة. ويمنع هذا الركن الدستوري أيا من أفراد العائلة، ولو كانت له كاريزما وحضور في العمل السياسي، منازعة الملك على دوره الدستوري، فالحكومة هي محل نزاع وتجاذب، ومن حق أي أردني وأردنية الوصول إلى موقع رئيس الوزراء، من خلال الأكثرية النيابية، وهنا محل النزاع والتغييرمع كل انتخابات. وفي المُلك لا نزاع ولا تغيير.

يجدر استحضار الكارثة الأفغانية للاعتبار، والتي بدأت بمنازعة الملك ظاهر شاه من ابن عمه الأمير داود خان الذي لم يتمكّن من تولي منصب سياسي بعد دستور عام 1964، إذ حظر ذلك على أفراد سلالة بركزاي الحاكمة تولي المناصب. اغتنم داود خان الفرصة إبّان تزايد استياء الشعب من فشل إصلاحات خمس حكومات متعاقبة، منذ تشكيل حكومة برلمانية في 1964، بالإضافة إلى ضعف الاستجابة للمجاعة التي حصلت مطلع السبعينيات، لتنفيذ انقلاب على الملك، بالتعاون مع الشيوعيين، والنتيجة كانت دخول البلاد في كارثة لم تخرج منها إلى اليوم.

قضية الأمير حمزة مأزقٌ تمر به الدولة للمرة الأولى في تاريخها، وهي جاءت في وقتٍ تراكمت فيه عوامل الغضب، ويحاول بعض العنصريين تركيبها على انقسام بين الشرق أردنيين والأردنيين من أصول فلسطينية، وهذا تهديد وجودي للبلد، وليس مناكفة للملك.

الحل واضح، تطبيق الدستور باعتباره تعاقدا بين الدولة والمجتمع، لا ينازَع الملك على الحكم، ولا يُحرم الشعب من حقوقه في التداول على الحكومات ومنازعتها وفق الأكثرية النيابية.

فلسطين... الدولة المنسيّة

محمد أحمد بنّيس

عرضت قناة الجزيرة الإخبارية، الأحد الماضي، فيلما وثائقيا بعنوان «فلسطين 1920»، من إخراج الفلسطيني أشرف المشهراوي. كشف وقائع على قدر كبير من الأهمية، تخص الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في فلسطين قبل مائة عام. وربما لا مبالغة في القول إنه أول عمل وثائقي استقصائي يعيد إلى الواجهة ما حاول الكيان الصهيوني جاهدا طمسه وإخفاء معالمه، ضمن عمله على اجتثاث الوجود الفلسطيني، وإثبات أن فلسطين كانت «أرضا بلا شعب»، وبالتالي إضفاء الشرعية على اغتصابها ومصادرة تاريخها. ولذلك، أهمية هذا العمل في ذهابه بعيدا في تقصّي عناصر القوة التي كانت تمتلكها فلسطين لإقامة دولة وطنية، أسوة ببلدان أخرى في المنطقة.

ينسف الفيلم الرواية الصهيونية بشأن عدم أهلية الفلسطينيين لإقامة دولتهم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، من خلال ما قدّمه من وثائق وصور وشهادات تثبت مستوى التقدّم الذي وصل إليه المجتمع الفلسطيني. ومن ذلك تطورُ البنية التحتية، وتأسيسُ «سكة حديد فلسطين» التي افتتحت أولى محطاتها في القدس (1892)، وازدهارُ الصناعة، سيما في قطاعات الزيوت والصابون والقطن والنفط والتعدين والسيارات والتحف والمنحوتات الدينية وغيرها، وانتعاشُ حركة التجارة، خصوصا في القدس ويافا وحيفا وغزة، ما أسهم في ربط الاقتصاد الفلسطيني بالعالم آنذاك، وتشكلُ اقتصاد خدماتي، واجتذابُ رؤوس الأموال الأوروبية والعمالة العربية، واتساعُ حركة البناء والعمران. وقد كان لذلك أثره على النمو الاقتصادي والحراك الاجتماعي، فاتسعت رقعة التعليم، وظهرت نواة طبقة وسطى حضرية، وازدهرت الصحافة، وانتعشت الحركة الثقافية والأدبية والإعلامية والفنية والرياضية، هذا من دون إغفال الحيوية السياسية اللافتة التي شهدها المجتمع الفلسطيني، بالتوازي مع المؤامرة الاستعمارية الكبرى التي كانت تُحاك ضده في كواليس السياسة الدولية.

شكلت هذه الدينامية المجتمعية عائقا بنيويا أمام الحركة الصهيونية طوال العقدين الأولين من القرن الماضي، ما حدا بها إلى الانتقال إلى طور آخر مَثَّل الدعم الاستعماري (البريطاني تحديدا) عنوانه البارز. وقد ساعدها على ذلك ما أفرزته الحرب العالمية الأولى من متغيرات، تجسّدت، بالأساس، في تفكّك الإمبراطورية العثمانية، وتقسيم تركتها بين بريطانيا وفرنسا. ويمثل المؤتمر الذي عقده الحلفاء في سان ريمو بإيطاليا (إبريل/ نيسان 1920) نقطة فاصلة في مسار هذه الحركة، بالنظر إلى ما تمخض عنه من مخرجات، بالأخص في ما يتعلق بتفعيل وعد بلفور، وفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين أمام اليهود. وقد أفضى ذلك إلى تشكل ميزان قوى جديد، ساعد بريطانيا على تقديم فلسطين على طبقٍ من ذهب إلى الصهاينة الذين وجدوا فيها كل المقومات لإنشاء كيانهم الغاصب، بحيث لم يتطلب الأمر منهم أكثر من إعلان دولتهم، بالتوازي مع عمليات القتل والتهجير والتشريد التي نفذوها بحق الشعب الفلسطيني.

ما قدمه فيلم «فلسطين 1920» لا يُعدُّ، فقط، نسفا للرواية الصهيونية، بل يعيد إلى الواجهة، أيضا، المسألة اليهودية، باعتبارها مشكلة غربيةً بالأساس، تطلب التخلص منها التضحية بشعب آخر كان يتلمس طريقه نحو تأسيس دولته الوطنية، بما توفر لديه من مؤهلات اقتصادية واجتماعية وثقافية، لم تتوفر لكثير من شعوب المنطقة آنذاك. وقد انتبه قادة الحركة الصهيونية مبكرا إلى هذه المؤهلات، فحولوها، بدعم بريطاني، إلى عناصر قوة لتنفيذ مشروعهم الاستيطاني.

من ناحية أخرى، كان لافتا توظيف طاقم الفيلم المونتاج في تكثيف الدلالات الفنية والرمزية والسياسية الكامنة خلف المشاهد، عبْر توليفاتٍ بصريةٍ بديعة، مزجت بسلاسة بين صور قديمة لأمكنة ومواقع فلسطينية معينة، وصور حديثة لها (2020)، في استعادةٍ للذاكرة الفلسطينية، ولدورها في إعادة كتابة الفصول المنسية في التاريخ الوطني الفلسطيني الحديث والمعاصر.

ختاما، لا يخلو توقيت صدور الفيلم من دلالةٍ في ظل مسلسل التطبيع المتواتر بين الكيان الصهيوني وعدد من البلدان العربية، فالفيلم يعيد الاعتبار للرواية الفلسطينية التي تتعرّض لهجمة شرسة ممنهجة من التحالف الإسرائيلي العربي الجديد الذي يتطلع إلى إعادة كتابة هذا التاريخ وفق الرواية الصهيونية.

عامٌ من العزلة

كمال عبد اللطيف

مرّت سنة على انتشار وباء كورونا، مخلّفة ضحايا عديدين من كل الأعمار، ومن كل فئات المجتمعات، في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب، سَنَةٌ جَرَّبَ فيها الإنسان الحجْر الصحي، والتزم قواعد جديدة في العيش، منتظراً إمكانية إيجاد الحلول القادرة على إبطال مفعول الڤيروس، والحدّ من انتشاره .. تعطلت طاقات وقدرات كثيرة للبشر أمام غموض الوباء، وسرعة اختراقه كل المجتمعات. وبعد مرور هذه السنة، يجري الحديث اليوم عن موجة جديدة أسرع من السابقة، وأكثر فتكاً. يحصل هذا زمن انطلاق حملات التلقيح في دول عديدة، بكل ما تحمله من آمال مرتبطة بمواجهة وقائية، يفترض أن تساهم في محاصرة الوباء ووقف سهولة انتشاره. ما زال ڤيروس كورونا يحتل الصدارة في مختلف المجتمعات، وما زالت تحوُّلاته وأصنافه تتناسل وتنتشر، مُخَلِّفَة خوفا كثيرا وألما كثيرا. يرتفع عدد الضحايا ثم يتناقص، تَتِمُّ تعرية صور النقص المهول في البنيات الصحية، سواء في المجتمعات الغنية أو الفقيرة، تليها لحظاتٌ من الصمت عن نقص الأكسجين، وعدم كفاية الأجهزة اللازمة للعلاج عند ارتفاع أرقام المصابين، فيزداد الخوف، وتتضاعف إجراءات العلاج. تواصل الحكومات إصدار القرارات والإجراءات المُعَزِّزَة لمبدأ الْحَدّ من التجمعات والاختلاطات، تغلق المقاهي والمطاعم والمسارح وقاعات الحفلات، ثم تفتح ساعات محدودة خلال النهار وبشروط خاصة، الأمر الذي يضع الحكومات أمام مبدأ الْحَدّ من الحريات الفردية والخاصة، على الرغم مما يثيره ذلك من أسئلةٍ في موضوع أدوار الدولة في المجتمع، وأدوارها بالذات زمن الأوبئة والكوارث الطبيعية. هذا من دون الحديث عن الآثار التي خَلَّفَها الوباء في مختلف أوْجُه الحياة، في نمط العيش وفي الاقتصاد وفي الموقف من الحياة والموت، وكذا في مختلف الآثار النفسية والاجتماعية المُتَرَتِّبَة عن كل ما ذكرنا، وهي آثارٌ تخترق اليوم وجود الإنسان، لتكسر، بكثير من العنف، أنماط العيش التي استأنس بها، وصنعت مختلف مساراته في الحياة، فجاءت كورونا لِتُوقِفَها، وتضع شروطاً جديدة لعالم جديد، شروط التعايش مع الوباء، حيث لا بديل اليوم والآن عن مبدأ التعايش مع الوباء، وذلك بمراعاة المقتضيات الضرورية لذلك.

مَرَّ عام كامل على بروز ظاهرة انتشار الوباء في الصين، ثم في أوروبا والولايات المتحدة، ثم باقي العالم، وبروز مختلف النتائج التي تَوَلَّدَت عنه في مختلف المجتمعات، مئات الآلاف من الضحايا، هشاشة البنيات التحتية الطبية في مراكز الاستشفاء الخاصة والعامة، صعوبات المواكبة العلمية للظواهر المرتبطة بالڤيروس وتقلُّباته، وصور انتشاره، أشكال من الانقباض النفسي حولت الكائنات البشرية، وخصوصا في الأشهر الأولى لبداية انتشار الوباء، إلى كائنات خائفة. ولم تتردَّد الفضاءات الافتراضية في إشاعة أساطير النهايات، نهاية الحياة، نهاية الكون والبشر. وقد لاحت علاماتها الأولى في أعْيُنِ من ينتظرونها ويُعَمِّمُون صورها. تَوَقَّف الإنتاج، واتّسعت مظاهر البطالة، أغلقت المدارس والجامعات، كما أغلقت المعامل والمقاولات، وملأت أخبار الضحايا فضاءات السمعي البصري، وهي فضاءات جديدة، ولا عهد للناس بها، فتضاعفت عوالمهم، وتنوعت وقائع حياتهم، لتزداد توتراً. ارتفعت درجات الفقر والهشاشة، وشملت كثيراً من فئات المجتمع وقطاعاته.

استأنس البشر خلال السنة المنصرمة بخوفهم، وضعوا الكمّامات على أَوْجُههم، وتبادلوا الحديث عن بعد، التزموا بقواعد الحجْر الصحي والعزْل الاجتماعي والتباعد الجسدي .. لا خروج ولا تسوُّق، ولا ركوب في الطائرات والقطارات والحافلات، ولا فسحة ولا سفر، تَكَيَّفُوا مع متطلبات عالم جديد من صنع ڤيروس كورونا، عالم أصبح بمذاقاتٍ أخرى، مراراتٍ أخرى، لا وقت للأفراح ولا لتبادل العزاء، وبحكم الغموض الذي لَفَّ كثيرا من أوجُه الحياة، اختلطت أمورٌ كثيرة، استأنس الناس بالغموض الذي يَلُفُّ موضوع الڤيروس، ويرتبط بمساره وتحولاته، والغموض المرتبط بحضوره وبآثاره، غموض المعرفة العلمية وغموض

> ينخرط الجميع اليوم في عمليات التعايش القسري مع الوباء ومقتضياته، ويتواصل الخوف

ما يتم تداوُلُه في الوسائط الاجتماعية. واستساغوا قَسْراً وكراهية قَبُول كل ما سبق، أَمَلاً في أشهر من العيش قادمةٍ بلا مُنَغِّصَات، وأَمَلاً في نمط آخر من العيش الجديد بطرق وأساليب أخرى في العيش.

وضع البشر الأقنعة على وجوههم، وحملوا انقباضهم غضبهم خوفهم حزنهم في العيون وفي الحركة، وعانقوا آمالهم العريضة في اقتراب الفرج. حملوا ذلك كله صامتين وكاتمين الغيظ الذي أصبح جزءاً منهم. مَرَّ عام على الأحوال نفسها، بدأت في الأشهر الأخيرة عمليات التلقيح، وشملت فئات من البشر ينتمون إلى قطاعات معينة، الصحة، الأمن، التعليم. أو إلى سنوات عمرية محدّدة، الشيوخ والعجزة أولاً، في انتظار تعميمه على من تبقّى من الساكنة. وتكاثر الحديث عن أصناف اللقاحات، ومخاطر بعضها، وتواصل الڤيروس حاضراً بأشكاله الجديدة، وموجاته التي لا تنقطع ولا تخفت إلا لتعود، وأحياناً بكثير من الشدّة والسطوة والفزع. يُواصل الڤيروس حضوره، يمارس جبروته الصامت، ويواصل البشر عزلتهم بأعين شاخصة، ووجوه لم تعد ملامح تعبيرها قادرةً على نقل ما يدور بداخلهم.

مَرَّ عام من العزلة. ينخرط الجميع اليوم في عمليات التعايش القسري مع الوباء ومقتضياته، يتواصل الخوف، ويستقر بتواصل أخبار الموت والموتى، وتضارب سوق اللقاح وأسواق العلاج. ويبدو أنه لا يوجد اليوم مخرج من الضائقة بعدما عَمَّت واستقرّت. لم نعد ندرك أسئلة العزل المرتبط بالخوف، والعزْل لا يُدرَك بالمشاهدة، وقوة ما يحصل في الذات أيام الحجْر وأشهره تستقر في تلافيف الجسم والوجدان، محدثةً رجّات نفسية وجسدية، يصعب التخلص من آثارها المباشرة وآثارها المقبلة. أما أفعال المقاومة ومواقف التفاعل والتعايش وقيم التفاؤل والتعلق الحياة، فإنها تظل مجرّد مُسكّنات مؤقتة، مُسكّنات تمهد لسقوطنا المنتظر أمام تلاحق ضربات الموجات الجديدة والمتحوّلة من كورونا، ومن أخواتها المحتملة الحصول.

(أكاديمي مغربي)

عقلية الدكّنجي... أو ذهنية المعارضة السورية

وائل السواح

خلال عشر سنوات، غيّرت المعارضة السورية جلدها مرات عدة. من هيئة التنسيق الوطني إلى مؤتمر أنطاليا إلى المجلس الوطني المؤقت إلى المجلس الوطني فالائتلاف الوطني فمؤتمرات القاهرة والرياض وموسكو فهيئة التفاوض السورية، وعشرات المجموعات والمبادرات التي نشأت على هامش هذه التشكيلات، وفي معارضتها. ولم تؤت أيٌّ من هذه المظاهر السياسية المعارضة أيّ أُكُل للسوريين، بل زادتهم تشتيتاً وتفكّكاً وضياعاً.

تَشتّت المعارضة وهزالُها شجّعا اللاعبين الدوليين والإقليميين على ألاّ يأخذوا هذه المعارضة على محمل الجدّ، بل على محاولة التلاعب بها واتخاذها ورقةً تعزّز مواقفهم في سورية للحصول على حصّة أكبر من الكعكة السورية. وبينما نسمع قادة الحكومات الغربية يكرّرون دوماً أنّ السوريين هم من يقرّرون مستقبلهم، ويتوصّلون إلى حلول لمشكلاتهم ويكتبون دستورهم، فإنّنا نعرف أنّ تحقيق أيّ إجماع بين قيادات هذه المعارضة وأصغر مسؤول حكومي غربي أو إقليمي صار الآن أصعب من ذي قبل بمرّات ومرّات.

أذكر محاضرة للفيلسوف السوري، حافظ الجمالي، الذي كان رئيساً لاتحاد الكتاب ووزيراً للتربية والتعليم العالي، ألقاها في مدينتي الصغيرة حمص، وكنت تلميذاً في المرحلة الثانوية، تحدّث فيها عن مَيل السوريين عموماً إلى المشاريع الفردية الصغيرة. وأطلق الجمالي على هذه الميل «عقلية الدكّنجي». وضرب مثلاً فقال: «إن سرّتَ في سوق الحميدية (كان القلب التجاري للعاصمة دمشق وقتها) لرأيت سلسلة غير متناهية من المحال التجارية التي يملك كلاً منها شخص واحد، أو شخصٌ مع أولاده، فإن مات تقاسم الأولاد المحلّ وجزّأوه إلى دكاكين صغيرة». وأردف: «نادراً ما نرى في السوق محلاً تجارياً لشريكين، فإن وجدت واحداً رأيناه بعد سنة أو سنتين وقد انقسم محلّين اثنين». ورأى الجمالي أنّ عقلية الدكّنجي لا تنتج اقتصاداً كبيراً، ولا تُراكِم رأس مال حقيقياً. ولا أدري إن أضاف، أو أنّني توهّمت أنّه أضاف، أنّ مثل هذه العقلية لا يمكن أن تنشئ حضارة حقيقية.

عقلية الدكّنجي هي التي تتحكّم بكثير من مناحي حياة السوريين، بما في ذلك معارضتهم. وتكاد المعارضة السورية تكون فريدةً لناحية كثرة عدد تنظيماتها، وصغر حجم كل منها، وضعف تأثيره منفردا. وليست هذه الظاهرة وليدة اليوم، فكلنا يعرف انقسام الحركات السياسية السورية تاريخيا. هذا ما فعله حزب البعث، حين انقسم إلى أربعة أو خمسة أحزاب تنتمي إلى يمين ويسار ووسط. انقسم عام 1961 فخرج منه الاشتراكيون العرب والوحدويون الاشتراكيون. وسنة 1966 انقسم إلى يمين ويسار، ثم عاد فانقسم إلى «شباطيين» وحركة تصحيحية. ثم انقسم الاشتراكيون العرب أنفسهم مثنى وثلاثاً، وكذلك فعل الوحدويون الاشتراكيون. وانقسم الاتحاد الاشتراكي خمس أو ست مرات. وجاء دور الشيوعيين، حين خرج المكتب السياسي، ثم منظمات القاعدة، ثم جناح يوسف فيصل، وانقسم المكتب السياسي، فخرجت منه حركة اتحاد الشيوعيين، وعاد خالد بكداش فانقسم وخرجت منه مجموعة قاسيون. وانقسم القوميون السوريون والإسلاميون. وانقسم «البارتي» الكردي إلى بضعة عشر تنظيماً. وهكذا صارت الأحزاب السياسية في الساحة السورية كأطباء الأسنان، تزيد نسبتها على حاجة المواطنين السوريين، من دون أن تعرف حقاً ما الفَرْق بين كلّ هذه الفِرَق، ومن دون أن تفهم لماذا لم يظهر على الساحة حزب جديد (أو أحزاب) يمثل قوى اجتماعية وفكرية غير القائمة على الساحة. ولماذا لم يظهر في سورية حزبٌ ليبرالي حقيقي، أو اشتراكي ديمقراطي؟ أيعقل أن يكون الطيف السياسي السوري بمجمله طيفاً قومياً- يسارياً- شعبوياً أو إسلامياً وحسب؟

ولشدّ ما تخطر محاضرة الجمالي ببالي هذه الأيام، وأنا أرى إلى حال المعارضين السوريين اليوم. تنقسم المعارضة إلى ثنائيات متعدّدة، فهي منقسمة ما بين معارضة داخلية وأخرى خارجية؛ ومنقسمة ما بين معارضة قديمة وأخرى حديثة؛ ومنقسمة ما بين معارضة إسلامية وأخرى علمانية؛ ومعارضة مدنية وأخرى مسلّحة. ثمّ تنقسم كلّ واحدة من هذه المعارضات إلى أجزاء لامتناهية في الصغر

> تكاد المعارضة السورية تكون فريدةً لناحية كثرة عدد تنظيماتها، وصغر حجم كلّ منها، وضعف تأثيره منفرداً

ولامتناهية في التأثير، تدور في فلك هذه الدولة أو تلك، فتتصارع الإيديولوجيات والأعلام وصور الزعماء والعُمُلات في بينها، دافعةً إلى الخلف صورنا وأعلامنا وأفكارنا وكلّ ما يخصّنا.

ولا يعني هذا القول أنّ المعارضة السورية لا تتمتع بشرعية ومصداقية، فللمعارضة الداخلية مشروعيتها الخاصة، لأنّها تعبر عن تطلعات فئة من السوريين الذين لا يحتلّون الآن ربما الصفوف الأمامية ولا يرفعون صوتهم عالياً، لكن، في وقت ما من المستقبل، ستراهم يشاركون برأيهم من خلال صندوق الاقتراع. تريد هذه الشريحة التوصّل إلى حلّ سياسي سلمي، يرفض العسكرة ويريد رحيل كلّ القوات الأجنبية من سورية، ولا يمانع بمرحلة انتقالية يشارك فيها جزء من النظام الحالي، لم يشارك بالقتل والتدمير وانتهاك حقوق الإنسان. وللمعارضة الخارجية مشروعيتها، من خلال انتشارها الأوسع وحريتها في الكلام وعلاقاتها الدولية. وشهد العامان الأخيران حركة مؤازرة بين جماعات المعارضة السورية، تمخضت عن ولادة مجموعات ومبادرات سياسية كثيرة. ويأتي هذا الحراك السياسي على أرضية متقاربة بدرجة عالية، وهو يقوم، إلى حدّ كبير، على جهود أفراد من المعارضين السوريين الذين كانوا يعملون بشكل مستقلّ، أو ممن كان لهم ارتباطات بأجسام المعارضة الحالية، ثم انفصلوا عنها لأسباب بعضها سياسي وبعضها إيديولوجي وبعضها شخصي، ولكن انسحابهم جاء أيضا فراقا سياسيا. تتقاسم هذه الحركات جملة من الأمور، بينها غياب الشخصيات السياسية التقليدية التي كانت معروفة قبل الثورة، أو التي طغت على المشهد السياسي بعدها. وتلعب المرأة في هذه المبادرات دورا أكثر أهمية، وهي في معظمها تياراتٌ ليبرالية، يعيش معظم أفرادها في أوروبا وأميركا الشمالية منذ ما قبل الثورة السورية، فهم يعرفون أيضا ومباشرة الديمقراطية وفصل السلطات وتداول السلطة وحرية الصحافة وسيادة القانون.

(كاتب سوري في واشنطن)

الشيخوخة والشباب والسياسة فلسطينياً

سمير الزبن

عندما وقف ياسر عرفات أول مرة على منبر الأمم المتحدة عام 1974، في واحدة من ذرى الاعتراف العالمي بالفلسطينيين والقضية الفلسطينية وممثلهم الشرعي، كان في الخامسة والأربعين من عمره. وكان جورج حبش، المعارض التاريخي لعرفات في إطار منظمة التحرير، يبلغ الثامنة والأربعين، عندما انقسمت الساحة الفلسطينية إلى رفض وقبول للبرنامج المرحلي. رسمت الحركة الشابة بقيادتها الشابة مستقبل الفلسطينيين في المنطقة، وأعلنت وجودهم السياسي الذي أراد الآخرون إخفاءه... اليوم، المتمرّدون على القيادة في حركة فتح ومثالهم ناصر القدوة، يبلغ الثامنة والستين، أي هو وأمثاله في سنّ التقاعد في كلّ قوانين العالم. ما أهمية الفرق في الأعمار، ولماذا التذكير بهذه الوقائع التاريخية؟ في السياسة، كما في الحياة، الفروق العمرية في غاية الأهمية، لأنّ العجائز في السياسة يبنون مكانهم على الماضي، يُذكّرون بأنّهم، في تاريخهم السابق، فعلوا كذا وكذا، ما يجعلهم يعتمدون تاريخهم السابق في تسويق أنفسهم، بوصفهم صانعي التاريخ. الشباب لا يستطيعون ادّعاء ذلك، فيكون عليهم صناعة المستقبل، وبالتالي صناعة تجربتهم التي ستجعلهم يوماً يفخرون بمنجزهم أو يخجلون منه. لذلك، يمكن القول إنّ العجائز أبناء الأمس العاجزون عن صناعة المستقبل. والشباب هم صانعو المستقبل الذين لا يملكون تاريخاً يثقل عليهم ويشل حركتهم. ومن يراجع بعض التغيرات المهمة التي شهدتها الدول الكبرى، والتي كانت حدثاً كبيراً، غالباً ما يكون صاحب الطرح الجديد من أجل المستقبل مرشّحاً شاباً وواعداً، حاملاً لواء التغيير. أما العجائز، فيُقدّمون أنفسهم بوصفهم حماة المنجز والتقاليد التي استقرت، والمهدّدة بفعل التغيرات. ليست قضية الشباب والشيوخ عارضة في الساحة الفلسطينية، فهي مفتاح مهم لفهم العطالة التي تعيشها هذه الساحة. في الوسع القول إنّ النخبة الشابة التي أمسكت العمل السياسي الفلسطيني منذ نهاية الستينيات أطبقت عليه طوال التاريخ اللاحق، بصرف النظر عن موقعها السياسي في الخريطة السياسية الفلسطينية. وطوال العقود اللاحقة، لم يولد أيّ تحدّ سياسي شبابي ببرنامج مستقبلي، يهدّد هذه النخبة المتحكّمة بالقرار الفلسطيني، والبنى الشابة التي دخلت التجربة تم تطويعها في سياق السيطرة الأبوية لقادة الفصائل الفلسطينية على البنى التنظيمية الممثلة للقيادة. وهو ما يمكن اعتباره عامل تعقيم (من العُقم) للحركة السياسية الفلسطينية، باحتكار هؤلاء الذين أمسكوا بالقرار وتابعيهم السلطة في الحركة السياسية، وهم ما زالوا ممسكين بالقرار ومفاصل العمل السياسي. وإذا كان الرئيس محمود عباس، وعمره 86 عاماً، المثال الأبرز لهذا الاستمرار، فإنّ الجيل الثاني الذي في السبعينيات من عمره، ويشكل الكتلة الأساسية من قائمة حركة فتح للمجلس التشريعي، آتٍ من البيئة نفسها، وهو جيل مطوَّع من القيادة التاريخية. وبالنظر إلى أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح المرشّحين لانتخابات المجلس التشريعي، التي في مقدمتها محمود العالول (71 عاماً)، وأصغرهم جبريل الرجوب (67 عاماً)، هذا بعد استثناء دلال سلامة (55 عاماً)، والتي أعتقد أنّها ليست سوى ديكور نسائي في اللجنة المركزية لحركة فتح.

كيف نقرأ وضع الساحة الفلسطينية آخذين بالاعتبار ما ذكر أعلاه؟ لحالة الاستنقاع التي تعيشها الساحة الفلسطينية اليوم، سياسياً وقيادياً، علاقةٌ، إلى حدّ كبير، بعدم قدرة هذه الساحة على تجديد قياداتها، على مستويي السياسة والعمر؛ المسألتان مترابطتان. لأنّ من الممكن تجديد القيادة ببعض المظاهر الشابة كنوع من الديكور، لتجميل المستنقع، وهذا ليس التجديد الذي تحتاجه حركة وطنية تعيش مأزقاً وجودياً. تآكلت حركة فتح التي شكلت العمود الفقري للحركة الوطنية الفلسطينية، وتحوّلت إلى شيء هلامي. لا يتحمل محمود عباس وحده مسؤولية ما وصلت إليه الحال، بل يتحمّل جزءاً كبيراً من المسؤولية الرئيس الراحل ياسر عرفات، والذي كان قادراً على توحيد حركة فتح، وهي ميزة يفتقدها عباس. كما أنّ انتقال الوضع الفلسطيني من سيطرة «فتح» على منظمة التحرير إلى السيطرة على السلطة الفلسطينية، جعلها تعيد إنتاج بنيتها بطريقة أبوية استزلامية، توغّل فيها الرئيس عباس إلى نهايتها. ونستطيع القول إنّ ما يحمل حركة «فتح» اليوم، ليس تاريخها النضالي، بل امتيازات السلطة وفسادها، على تفاهة منجز السلطة منسوباً للمشروع الوطني الفلسطيني الذي قام من أجل استعادة حقوق الفلسطينيين، وليس من أجل سلطة حكم ذاتي إداري تحت إشراف الإسرائيليين. المؤشّر الهام على هذا الوضع وضع شركاء حركة «فتح» في منظمة التحرير، فهذه الفصائل، بكلّ طيفها السياسي وتنوعها، من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، مروراً بالجبهة الديمقراطية، وصولاً إلى جبهة التحرير العربية، لا يُقدّر لها الوصول إلى المجلس التشريعي. ويأتي التحدّي من حركة «حماس»، أي من خارج إطار منظمة التحرير الذي استهلكته «فتح» وعلكته، حتى بات غير صالح للاستخدام، لخواء مضامينه، ولضعف الشركاء الذين تلاشوا وتحوّلوا إلى رايات حزبية بلا عضوية جدّية، إلّا بما يناسب ميزانياتها المالية (الكوتا) التي تأخذها من الصندوق القومي، أي الجميع يعمل عند حركة «فتح» وبالتالي عند رئيسها عباس. بذلك، تحولت «فتح» إلى حزب سلطة، قبل استكمال المشروع الوطني الفلسطيني.

> النخبة الشابة التي أمسكت العمل السياسي الفلسطيني منذ نهاية الستينيات أطبقت عليه طوال التاريخ اللاحق

(كاتب فلسطيني في السويد)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد
(Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري**
■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads